

بسم الله الرحمن الرحيم

هتف العلم بالعمل

الشيخ/ خالد بن عثمان السبت

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فهذا مجلس للمذاكرة، وحينما نوجه هذا الكلام فإنما أتوجه به إلى نفسي أولاً، وأذكر به إخواني لعل الله - عز وجل- أن يرفعنا وأن يرفعنا، ولولا ذلك لم أتحدث عن هذا الموضوع بكلمة واحدة، فأنا أول المقصرين، ولا ينبغي لأحد أن يتوهم بحال من الأحوال أن ما يذكره الإنسان في هذا المقام أنه قد حققه وتحلى به، ولولا أننا نعتقد وجوب هذه المناصحة والمذاكرة ديانة لما كان والله هذا الحديث.

والكل يعلم ما جاء في فضل العلم ومنزلته، وفي منزلة العلماء وما لهم من الدرجات العالية عند الله - تبارك وتعالى-، وكل ذلك إنما هو محمول على العلم الذي يتحلى صاحبه بمقتضاه، وقد قال الله -تبارك وتعالى- في سورة النور: **{اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ}** [النور: ٣٥].

فهذا نور الله -عز وجل- في قلب المؤمن، ذاك الهدى على ما قاله طائفة من السلف -رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم-، إذا استنار القلب استنار الوجه وأشرق، وصح العمل، واستقامت الحال، وحصل لنا التميز في أحوالنا وأعمالنا، وفي أمورنا كلها، وترفعنا عن الرزايا، والدنيا، وهذا هو العلم الذي لا يهدى لعاصٍ، هذا الذي قال الله -عز وجل- في أهله: **{شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ}** [آل عمران: ١٨]، هؤلاء الذين أشهدهم، وأولئك الذين جاء الثناء عليهم إنما هم أولئك الذين يعملون بعلمهم، وأما الذين لا يعملون فقد ضرب الله -عز وجل- لهم أسوأ الأمثال، كما سيأتي.

وهكذا في قوله -جل جلاله-: **{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}** [الزمر: ٩]، والمراد بذلك من يعمل بعلمه، وهم الذين يرفعهم الله -عز وجل- درجات كما قال: **{يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}** [المجادلة: ١١].

وهكذا في قوله -صلى الله عليه وسلم- في الحديث: **{(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)}**^(١)، فهذا الذي أراد به خيراً وفقهه هو الذي يعمل بمقتضى هذا العلم.

وأما الذي يحفظ ويتعلم ويتفقه ولكنه لا يعمل بهذا العلم فليس ذلك ممن أريد به الخير، فقد يكون علمه سبباً في الجناية عليه ووبالاً عليه كما ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله-^(٢)، وقرر هذا المعنى طائفة

١ - أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، برقم (٧١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، برقم (١٠٣٧).

٢ - الفوائد لابن القيم (ص: ١٠١).

من أهل العلم كالشاطبي^(٣)، فاعتبر العلم وسيلة من الوسائل ليس مقصوداً لنفسه من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وقرر أن كل ما ورد في فضل العلم إنما هو ثابت للعلم من جهة ما هو مكلف بالعمل به.

وممن تكلم على هذا المعنى أيضاً من أهل العلم ابن جماعة -رحمه الله- فذكر أن ذلك يختص بالعلماء العاملين الأبرار المتقين الذين قصدوا به وجه الله تعالى والزلفى إليه، لا من طلبه لسوء نية أو خبث طوية، أو لأغراض دنيوية من جاه، أو مال، أو مكاتبة في الأتباع والطلاب^(٤)، وقل إن شئت: من طلبه للشهادة.

فالعالم كما يقول ابن الجوزي -رحمه الله-: ليس بمجرد صورته هو النافع، بل معناه، وإنما ينال معناه من تعلمه للعمل به، فكلما دله على فضل اجتهده في نيته، وكلما نهاه عن نقص بالغ في مباحثته، فحين إذن يكشف العلم له سره^(٥).

وممن تكلم على هذا المعنى الخطيب البغدادي -رحمه الله- وصوّر العلم بصورة الشجرة، واعتبر العلم ثمرة، قال: "وليس يعد عالماً من لم يكن بعلمه عاملاً، والعلم يراد للعمل كما يراد العمل للنجاة، فإن كان العمل قاصراً عن العلم كان العلم كلاً على العالم، ونعوذ بالله من علمٍ عاد كلاً، وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه غلاً"^(٦)، هذا كلام الخطيب، وله كلام جيد في هذا المعنى، فهو يقرر أنه كما لا تنفع الأموال عند خزانها إلا بإنفاقها كذلك لا تنفع العلوم إلا لمن عمل بها وراعى واجباتها، ولهذا نعى ابن الجوزي -رحمه الله- على أولئك الذين لا يعملون بعلمهم فهو يرى أن المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاته لذات الدنيا وخيرات الآخرة، فقدم مفلساً مع قوة حجة عليه^(٧).

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنهما-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: ((ارحموا ترحموا، واغفروا يغفر لكم، ويل لأقمار القول))^(٨)، شبه الأذان بالأقمار وهي ذلك الوعاء المعروف الذي يكون واسطة في صب المائع في الأوعية ((ويل لأقمار القول)).

فهذه الأقمار لا يستقر بها المائع، فهي وسيلة لها فوهة واسعة من أعلى، وهي مفتوحة من الأسفل فيصب المائع بواسطتها فيصل إلى الأوعية التي تحويه، فهو لا يستقر بهذه الأقمار ((ويل لأقمار القول))، فشبه الأذان التي تسمع ولكنها لا تعي ولا تعمل ولا تستوعب ولا تتأثر ولا تنتفع شبهها بهذه الأقمار يمر بها هذا الكلام ويصك مسامعها دون أن يبقى له أثر فيها، ((ويل لأقمار القول، ويل للمصرين الذين يصرون

٣ - الموافقات (١/ ٨٣).

٤ - تذكرة السامع والمتكلم في أدب العلم والمتعلم (ص: ٤٥).

٥ - صيد الخاطر (ص: ١٧٢).

٦ - اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي (ص: ١٤).

٧ - صيد الخاطر (ص: ١٥٩).

٨ - أخرجه أحمد في المسند، برقم (٦٥٤١)، والبخاري في الأدب المفرد، برقم (٣٨٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٨٩٧)، وفي السلسلة الصحيحة، برقم (٤٨٢).

على ما فعلوا وهم يعلمون))، هذا الحديث رواه الإمام أحمد، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله.

بل عد ابن القيم -رحمه الله-^(٩) من علامات الشقاوة أنه كلما زيد في علمه زيد في كبره وتبهره، وكلما زيد في علمه زيد في فخره واحتقاره للناس، وحسن ظنه بنفسه، والله يقول: **{اتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}** [البقرة: ٤٤].

وأخبرنا عن شعيب -صلى الله عليه وسلم- أنه قال مخاطباً قومه: **{وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}** [هود: ٨٨]، ولا يمكن لأحد أن تتجح مساعيه في الإصلاح إلا إذا كان متحققاً بالصلاح، فإن ما يزاوله الإنسان من أقوال وأفعال إذا كانت تخرج من لسان لم يتصل بالقلب، ولم يكن لذلك من الفعال ما يصدق الأقوال فإن هذا الإنسان لا يمكن أن يجري على يديه الإصلاح، وأن ينتفع به، وإنما هي عبارات تقال، وكلمات تسمع على المنابر، أو في المحاضرات، أو في غير ذلك، ثم ما يلبث الناس أن يخرجوا بنفس الحال التي دخلوا بها، ولذلك انظروا كم نسمع، وكم نحضر من الخطب، وكم يوجد في البلد من جامع، كل هؤلاء الناس ينساقون طواعية في يوم الجمعة، وقد تهيئوا لذلك، ويسمعون هذه الخطب لكن ما مدى تأثير هذه الخطب في واقعهم وحالهم؟ وكم نسبة أولئك الذين يرجعون من المسجد بحال جديد وعمل جديد، ووجه جديد، وقلب جديد؟، قل ذلك.

الله -تبارك وتعالى- يقول: **{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف: ٢-٣]، ولما سئلت عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن خلق النبي -صلى الله عليه وسلم-؟ قالت للسائل وهو سعد بن هشام: "أما تقرأ القرآن؟ قال: بلى، قالت: كان خلقه القرآن"^(١٠). نحن نقول: لماذا فتح الصحابة -رضي الله تعالى عنهم- الدنيا في مدة يسيرة؟، في سنة خمس وعشرين للهجرة كانت جيوش المسلمين تشرق فيما يسمى بآسيا الوسطى في هذه الأيام، أو فيما يسمى بالجمهوريات الإسلامية، وهي غرباً تجول وتصل في بلاد المغرب في مدة يسيرة، هؤلاء كانوا يحملون علماً وعملاً، ولما جاءوا إلى أهل الشام هال الناس ما رأوا من أخلاقهم وأعمالهم، ومع أنهم من النصارى إلا أنهم قالوا: "إن هؤلاء -يعنون أصحاب محمد -صلى الله عليه وسلم- خير من الحواريين أصحاب عيسى -عليه الصلاة والسلام"^(١١).

في ازدياد العلم إرغامُ العدا *** وجمالُ العلم إصلاحُ العمل^(١٢)

وفي حديث أسامة -رضي الله تعالى عنه- قال: "سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((بجاء برجل فيطرح في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيطيف به أهل النار فيقولون: أي

٩ - انظر: مفتاح دار السعادة (١/ ١٣٦).

١٠ - أخرجه أحمد في المسند، برقم (٢٤٦٠١)، وقال محققوه: "حديث صحيح".

١١ - شرح العقيدة الواسطية للعثيمين (٢/ ٢٩٣).

١٢ - مفتاح الأفكار للتأهب لدار القرار (٣/ ٢٣٦)، ومجموعة القوائد الزهديات (١/ ٥٢٢).

فلان، ألسنت كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: إني كنت أمر بالمعروف ولا أفعله، وأنهى عن المنكر وأفعله^(١٣)، وهو مخرج في الصحيحين، ولا مناص، فليس لأحد أن يقول: سأدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل أن لا يقع لي هذا الوعيد، فإن ذلك يكون أسوأ حالاً في حقه؛ لأن هذا الإنسان يكون قد جمع بين أمرين، بين سوءتين وخطيئتين، جمع بين ترك الإنكار مع ترك العمل بما أمره الله - عز وجل - به والامتنال، وقد قال الحسن البصري - رحمه الله -: "لقد أدركت أقواماً كانوا أمر الناس بالمعروف وأخذهم به، وأنهى الناس عن المنكر وأتركهم له، ولقد بقينا في أقوام أمر الناس بالمعروف وأبعدهم منه، وأنهى الناس عن المنكر وأوقعهم فيه، فكيف الحياة مع هؤلاء؟!"^(١٤).

وفي حديث أبي برزة - رضي الله تعالى عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفق، وعن جسمه فيم أبلاه))^(١٥)، عن علمه ماذا عمل به، يسأل عن هذا، كلنا سيسأل عن ذلك، فهل أعددنا لهذا السؤال جواباً؟

وعن زيد بن أرقم - رضي الله تعالى عنه - قال: كان من دعاء النبي - صلى الله عليه وسلم -: ((اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع))^(١٦).

وأخرجه ابن ماجه عن جابر - رضي الله تعالى عنه - بلفظ: ((سلوا الله علماً نافعاً، وتعوذوا بالله من علم لا ينفع))^(١٧).

والعلم الذي لا ينفع ولا يرفع هو العلم الذي لا يورث عملاً، يستوي فيه حال الإنسان مع حال العوام، فلا ترى فيه زيادة عمل من صلاة وصيام وذكر وقراءة ومسارة في الخيرات، هو كغيره ممن لم يتعلم ولم ينصب، وقد جعل الحافظ ابن القيم - رحمه الله - العلماء على ثلاثة أصناف:

الأول: هو ذلك العالم الذي استنار بعلمه واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو من ورثة الأنبياء.

والثاني: هو العالم الذي استنار بنوره ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصراً على نفسه فيبينه وبين الأول ما بينهما.

١٣ - أخرجه البخاري، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، برقم (٧٠٩٨)، ومسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله، برقم (٢٩٨٩).

١٤ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٢ / ١٥٥).

١٥ - أخرجه الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، باب في القيامة، برقم (٢٤١٧)، وقال: "هذا حديث حسن صحيح"، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٤٦).

١٦ - أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢٢).

١٧ - أخرجه ابن ماجه، أبواب الدعاء، باب ما تعوذ منه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، برقم (٣٨٤٣)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٦٣٥).

والثالث: هو العالم الذي لم يستتر بنوره ولا استتار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة إذا ظهر لهم وارتقى المناير.

وبسطة الأول رحمة لهم، وفي حديث جندب -رضي الله تعالى عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه))^(١٨).

وفي حديث أبي برزة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: ((مثل الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه مثل الفتيلة تضيء على الناس وتحرق نفسها))^(١٩)، والله -عز وجل- سمى يوم القيامة بيوم التغابن، ومن التغابن الذي يقع فيه ما ذكره الحسن البصري -رحمه الله- وهو ذاك الإنسان الذي علم علماً فانتفع به غيره، فعمل به فدخل الجنة، ولم يعمل هو بمقتضى هذا العلم، فدخل النار فذاك يوم التغابن^(٢٠).

وفي حديث أنس -رضي الله عنه- مرفوعاً: ((مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون))^(٢١)، رواه الإمام أحمد، وذكره الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله- في صحيح الترغيب والترهيب.

يا أيها الرجلُ المعلمُ غيره *** هلا لنفسك كان ذا التعليمُ

تصف الدواء لذي السقام وذي الضنى *** كيما يصحَّ به وأنت سقيمُ

ابدأ بنفسك فانها عن غيرها *** فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك يُقبل إن وعظت ويُتدى *** بالقول منك وينفع التعليمُ

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله *** عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ^(٢٢)

فالوعيد الذي في هذه الأحاديث حمل طائفة من أهل العلم على القول بأن ترك العمل بالعلم من كبائر الذنوب، وقد ذكر ابن حجر الهيتمي ذلك في كتابه "الكبائر"، وعدّه من جملة الكبائر؛ لورود الوعيد عليه بخصوصه^(٢٣).

١٨ - أخرجه أبو داود في الزهد، برقم (٣٧٧)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (١٦٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٨٣١).

١٩ - صححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٨٣٧)، ولم أقف على من أخرجه.

٢٠ - انظر: تفسير القرطبي (١٨ / ١٣٧).

٢١ - أخرجه أحمد في المسند، برقم (١٢٢١١)، وقال محققوه: "حديث صحيح، وهذا إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان، لكن قد توبع كما سيأتي، وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الصحيح"، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٩).

٢٢ - الأبيات لأبي بكر العزمي، انظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص: ١٨)، وأدب الدنيا والدين (ص: ٣٤)، والدر الفريد وبيت القصيد (١١ / ٢٦٣).

٢٣ - انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١ / ١٥٥-١٥٧).

وهكذا ذكر ذلك الحافظ ابن القيم -رحمه الله- فذكر طائفة أو جملة من الكبائر وقال: "منها أن يقول ما لا يفعل، قال تعالى: **{كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ}** [الصف: ٣]"^(٢٤)، من الكبائر، والله -عز وجل- يقول: **{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ}** [البقرة: ١٢١].

يقول ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه-: "والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله -عز وجل-، ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولا يتأول منه شيئاً على غير تأويله"^(٢٥). وجاء عن مجاهد -رحمه الله-: "يتبعونه حق اتباعه وذلك بالعمل"^(٢٦).

وهكذا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-، والحسن، وعطاء، وغيرهم، حملوا ذلك على العمل بمقتضى العلم والقرآن، والتطبيق والامتثال، وشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- يقول: "إن لفظ التلاوة **{يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ}** [البقرة: ١٢١] إذا أطلق في مثل هذه الآية فإنه يتناول العمل بالقرآن؛ لأن الذي يتلوه معنى ذلك أنه يتبعه"^(٢٧).

وقد جاء عن ابن مسعود -رضي الله تعالى عنه- قال: "كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"^(٢٨).

وجاء عن أبي عبد الرحمن السلمي -رحمه الله-: "حدثنا الذين كانوا يُقرئونا أنهم كانوا يستقرئون من النبي -صلى الله عليه وسلم-، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً"^(٢٩).

انظروا إلى الأمثال، أسوأ الأمثال في القرآن ضُربت لأولئك الذي لا يعملون بمقتضى هذا العلم، أمة بكاملها -اليهود-: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا}** [الجمعة: ٥]، وضُربت لفرد وهو ذلك الذي آتاه الله -عز وجل- آياته فانسلخ منها فقال: **{فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرِكُهُ يَلْهَثُ}** [الأعراف: ١٧٦]، فذكره في أبشع صوره وأسوأ حالاته حينما يخرج لسانه فيحركه.

وفي حديث سمرة -رضي الله تعالى عنه- الحديث الطويل في الرؤيا التي رآها النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: ((أما الذي يُتْلَغُ رأسه بالحجر فإنه يأخذ القرآن فيرفضه، وينام عن الصلاة المكتوبة))^(٣٠)، وفي رواية: ((والذي رأيتُه يُشَدِّخُ رأسه فرجل علمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل به في

٢٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين (٤ / ٣٠٩).

٢٥ - تفسير الطبري (٢ / ٤٨٩)، وتفسير ابن كثير (١ / ٤٠٣).

٢٦ - رُوي هذا القول عن ابن عباس وابن مسعود كما في تفسير الطبري (٢ / ٤٨٨)، وأبي رزين (٢ / ٤٨٩)، وروي عن مجاهد (٢ / ٤٩٠).

٢٧ - انظر: مجموع الفتاوى (٧ / ١٦٧).

٢٨ - تفسير الطبري (١ / ٧٤)، (١ / ٨٣).

٢٩ - المصدر السابق (١ / ٧٤).

٣٠ - أخرجه البخاري، كتاب التهجد، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يصلِّ بالليل، برقم (١١٤٣).

النهار^(٣١))، لا مناص، لا بد من العمل، وليس الحل أو الطريق أن يترك العلم، فإن الله - عز وجل - لا يمكن أن يعبد وأن يتقرب إليه وأن يعرف الطريق الذي يوصل إليه ولا يمكن أن يعرف المعبود - جل جلاله - ولا الدار الآخرة إلا بالعلم.

فالعلم الصحيح هو الذي يحمل صاحبه على العمل، فأين المفر؟ لا بد من العلم، وحضور مجالس العلم حياة للقلوب، لكن لا بد من العمل، وفي حديث أبي موسى الأشعري - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((والقرآن حجة لك أو عليك^(٣٢)))، رواه مسلم.

فإن أولى الناس بهذا القرآن من عمل به وإن لم يحفظه، وإن أشقى الناس بهذا القرآن من حفظه ولم يعمل بما فيه، وحديث: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن...))^(٣٣)، هذا مقيد كما جاء في الروايات الأخرى الصحيحة: ((مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ويعمل به كمثل الأترجة))^(٣٤)، فأين الذي لا يعمل؟

وفي حديث النواس - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به))^(٣٥)، أما القراءة بلا عمل ولا تطبيق ولا امتثال فهذا شأنه عظيم، وفي حديث أبي أمامة - رضي الله عنه - سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - يقول: ((اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه))^(٣٦)، ومن هم أصحابه؟

هم الذين يقرءونه آناء الليل وأطراف النهار ويعملون بما فيه، هم الذين يتلونه حق تلاوته، في حديث جابر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: ((القرآن شافع مشفع، وما جلُّ مُصدّق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه قاده إلى النار))^(٣٧)، وفي حديث علي - رضي الله عنه - أنه ذكر فتناً في آخر الزمان فقال له عمر - رضي الله عنه - متى ذلك يا علي؟ فقال: ((إذا تُفقه لغير الدين، وتُعلم العلم لغير العمل، والتُتمست الدنيا بعمل الآخرة))^(٣٨)، وهو زماننا هذا. وعن ابن مسعود: "تعلموا فإذا علمتم فاعملوا"^(٣٩).

٣١ - أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، برقم (١٣٨٦).

٣٢ - أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء، برقم (٢٢٣).

٣٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأطعمة، باب ذكر الطعام، برقم (٥٤٢٧)، ويرقم (٧٥٦٠)، في كتاب التوحيد، باب قراءة الفاجر والمنافق، وأصواتهم وتلاوتهم لا تجاوز حناجرهم، ومسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، برقم (٧٩٧).

٣٤ - أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب إثم من رأى بقراءة القرآن أو تأكل به أو فخر به، برقم (٥٠٥٩).

٣٥ - أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، برقم (٨٠٥).

٣٦ - أخرجه مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، وسورة البقرة، برقم (٨٠٤).

٣٧ - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٦٥٥)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم (١٨٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٤٤٣).

٣٨ - أخرجه معمر بن راشد في جامعه، برقم (٢٠٧٤٣).

٣٩ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٥)، برقم (١٢٦٦)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ١٣١)، واقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٢٣).

وأبو الدرداء - رضي الله عنه - يقول: "إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رعوس الخلائق فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك ربي، فيقول: ما عملت فيما علمت؟" (٤٠).

وجاء عن حبيب القيسي أنه كان يقال: "ما أحسن الإيمان ويزينه العلم، وما أحسن العلم ويزينه العمل، وما أحسن العمل ويزينه الرفق، وما أضيف شيء إلى شيء مثل حلم إلى علم" (٤١).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه -: "ما استغنى أحد بالله إلا احتاج إليه الناس، وما عمل أحد بما علمه الله إلا احتاج الناس إلى ما عنده" (٤٢).

وجاء عن الحسن: "كان الرجل يطلب العلم فلا يلبث أن يرى ذلك في تخشعه وهديه ولسانه ويده".

وسئل الثوري: "طلب العلم أحب إليك أو العمل؟ فقال: إنما يراد العلم للعمل فلا تدع طلب العلم للعمل، ولا تدع العمل لطلب العلم" (٤٣)، هذا السؤال الذي نسمعه دائماً كيف نوفق؟

والإمام أحمد - رحمه الله - يقول: "ما كتبت حديثاً عن النبي - صلى الله عليه وسلم - إلا وقد عملت به حتى مر بي الحديث أن النبي - صلى الله عليه وسلم - احتجم وأعطى أبا طيبة الحجام ديناراً، فاحتجمت وأعطيت الحجام ديناراً" (٤٤)، إلى هذا الحد!

ووكيع يقول: "إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به" (٤٥).

ويقول الثوري: "العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا، فإذا طلبوا هربوا" (٤٦).

وهذا الملائني - أعني عمرو بن قيس - يقول: "إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة تكن من أهله" (٤٧).

وذاك - أعني أبا عصمة - الذي بات عند الإمام أحمد ليلة - طالب علم - فوضع له ماءً ثم جاءه في صلاة الفجر، والماء لم يتغير فقال: سبحان الله، رجل يطلب العلم، ولا يكون له ورد من الليل!

كم مرة سمعنا هذا؟!.

يقول الخطيب - رحمه الله -: "ينبغي لطالب العلم والحديث أن يتميز في عامة أموره عن طرائق العوام

٤٠ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٨٢)، برقم (١٢٠٤)، واقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي (ص: ٤٢).

٤١ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٥٠٦)، وتهذيب الكمال في أسماء الرجال (٩/ ١٥٥)، قال رجاء بن حيوة: كان يقال: "ما أحسن الإسلام ويزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان ويزينه التقوى، وما أحسن التقوى ويزينها العلم، وما أحسن العلم ويزينه الحلم، وما أحسن الحلم ويزينه الرفق".

٤٢ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٧)، برقم (١٢٧٥).

٤٣ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٧/ ١٢).

٤٤ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٢/ ٥٨٨)، وسير أعلام النبلاء (١١/ ٢٩٦).

٤٥ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (٢/ ٥٨٨)، ومقدمة ابن الصلاح (ص: ٣٥٥).

٤٦ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٠)، برقم (١٢٤٩).

٤٧ - صفة الصفوة (٢/ ٧٢).

باستعمال آثار النبي -صلى الله عليه وسلم- ما أمكنه، وتوظيف السنة على نفسه، فالله يقول: **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ** [الأحزاب: ٢١] (٤٨).

فالعبادة ضربان كما يقول أهل العلم: علم وعمل، وحقهما أن يتلازما؛ لأن العلم كالأس، والعمل كالبناء، وكما لا يغني أس ما لم يكن بناء ولا يثبت بناء ما لم يكن أس، كذلك لا يغني علم بغير عمل، ولا عمل بغير علم، ولهذا يقول بعض أهل العلم: "العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يُطلب علم، ولولا العلم لم يُطلب عمل، ولأن أدع الحق جاهلاً به أحب إليّ من أن أدعه زهداً فيه" (٤٩)، يعني بعد أن عرفته.

وجعل ابن القيم -رحمه الله- جهاد النفس أربع مراتب: (٥٠)

الأولى: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الرسول -صلى الله عليه وسلم- الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها شقيت في الدارين، هذا يحتاج إلى مجاهدة؛ لأنه يحتاج إلى تواضع، وصبر وجلوس وتعب وعناء، وقد يسمع ما يكره مما يخالف هواه.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فإن مجرد العلم بلا عمل لا ينفع، وهذا يحتاج إلى مجاهدة؛ لأن النفس تقعد به، وتشده إلى الكسل وتطلب الراحة.

والثالثة: أن يجاهدها في الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيئات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله -عز وجل-.

والرابعة: وهي أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله الله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الريانيين.

هذا هو العالم الرياني تعلم ويعمل، ويدعو، يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصبر على ما يصيبه من الأذى، وقد قال بعض أهل العلم لرجل رآه يستكثر من العلم دون عمل: "يا هذا إذا أفنيت عمرك في جمع السلاح فمتى تقاقل؟! (٥١)

فعلام إن لم أشف نفساً حرةً * * * يا صاحبي أجيد حمل سلاحي

إننا إذا عملنا بما نتعلم فإن ذلك يحصل به الرفعة عند الله -عز وجل-، بل الرفعة في الدنيا والآخرة والله -عز وجل- يقول: **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** [المجادلة: ١١]، والذي يعمل بعلمه يحصل له الاستقامة والثبات، ولا يشقى، ولا يضل في الدنيا ولا في الآخرة.

العلم جنة، ومجالس العلم من رياض الجنة، ولكن ذلك لا يكون ولا يتحقق إلا إذا كان الإنسان يعيش هذا العلم عملياً في سلوكه وحياته، والله -عز وجل- يقول: **فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** [طه: ١٢٣]، كما أنه يحصل بالعلم النجاة في الآخرة، وإذا سئل: ماذا عملت فيما علمت؟ كان

٤٨ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١ / ١٤٢).

٤٩ - اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي (ص: ١٥).

٥٠ - انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣ / ٩).

٥١ - الكشكول (٢ / ٢٨١).

والعلم ليس بنافعٍ أربابه *** ما لم يفد عملاً وحسنً تبصّر

إذا العلمُ لم تعمل به كان حجةً *** عليك ولم تُعذر بما أنت حاملٌ
فإن كنت قد أبصرتَ هذا فإنما *** يُصدّق قولَ المرءِ ما هو فاعلٌ^(٥٢)

كما أن الذي يعمل بعلمه يسلم من حال أولئك الذين وصفهم الله بأسوأ الأوصاف وضرب لهم أسوأ الأمثال **{وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا}** [الأعراف: ١٧٥]، وهكذا: **{مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ}** [الجمعة: ٥]، والله - عز وجل - يقول: **{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ}** [الكهف: ٥٧]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: "أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه، فذنبه من جنس ذنب اليهود"^(٥٣).

كما أن من عمل بما علم أورثه الله - عز وجل - علم ما لم يعلم، وهذا شيء مشاهد فتفتح بصيرته ويستتير قلبه، والله يقول: **{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ}** [محمد: ١٧]، وهذا الهدى يكون في العلم والعمل: **{وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا * وَإِذَا لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}** [النساء: ٦٦-٦٨]، كما أن العلم إنما يحفظ بالعمل، فإذا طبقتَه وامتنلته بقي راسخاً ثابتاً لا يُنسى، وقد ذكر ابن القيم - رحمه الله - من جملة الأسباب التي يحصل بها ذهاب العلم ونسيانه ترك العمل به^(٥٤).

فالعلم به يوجب تذكره وتدبره وإذا ترك العمل والامتثال نسيه، ولهذا كان بعض السلف يقول: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به"^(٥٥).

وقال بعض السلف - وهو عنوان هذا الدرس -: "هتف العلم بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل"^(٥٦)، والزهري - رحمه الله - يذكر في غوائل العلم جملة منها: "ومن ذلك أن يترك العمل به حتى يذهب"^(٥٧). وكان الشعبي - رحمه الله - يقول: "كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم"^(٥٨).

وأبو قلابة - رحمه الله - كان يوصي تلميذه أيوب السخيتاني يقول: "إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له

٥٢ - الأبيات لسابق البيرري، انظر: اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٥٤)، وجامع بيان العلم وفضله (١) ٦٩٩.

٥٣ - المستدرک على مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٤).

٥٤ - انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة (١/ ١٦٩).

٥٥ - اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٩٠)، وجامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٩).

٥٦ - اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (ص: ٣٦).

٥٧ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٤٤٢)، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء (٣/ ٣٦٤).

٥٨ - جامع بيان العلم وفضله (١/ ٧٠٩)، وثقل عن وكيع بن الجراح أيضاً في جامع بيان العلم وفضله (٢/ ١٠٣١).

عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به الناس" (٥٩).

ويقول القاسم: قال لي عبد الله: "إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان يعلمه للخطيئة كان يعملها" (٦٠)، وإذا عمل الإنسان بمقتضى العلم صار قدوة صالحة للآخرين، فالناس ينتفعون بعلمه، ويقبلون عنه الفتيا، ويبارك له في هذا العلم، وينتفع به الخلق، وقد قال عقبة بن أبي سفيان لمؤدب ولده حين دفعه إليه: "ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح بنيّ إصلاح نفسك فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت" (٦١).

فالمعلم في قاعة الدرس، الخطيب في منبر الجمعة، المحاضر، الأستاذ في الجامعة كل هؤلاء ينظرون إلى هذا الإنسان الذي يعلمهم، فإن رأوه يمتثل فإنهم ينتفعون بعلمه، ويقبلون عنه، ومن يرون أنه يتكلم بأمر كأنه يُدفع إلى ذلك دفعاً فتقوا أن هذه الكلمات لا يمكن أن تجاوز آذانهم فتصل إلى القلوب في حال من الأحوال؛ لهذا نقول للمربين وللمعلمين وللخطباء وللموجهين: لو أننا كنا نمتثل ونعمل ونطبق والله لتغيرت أحوال المجتمع، كم عدد الذين يطلبون العلم؟ وكم عدد الذين يحضرون ويتعلمون في خطبة الجمعة وغيرها؟ فأين العمل؟ وأين الامتثال؟ أين التطبيق؟، لكن يستمع الإنسان أحياناً إما لرغبة في نفسه، وإما لغرض أو عرض من أعراض الدنيا، أو لأنه يعتقد أن حضوره لهذه الخطبة مثلاً أن ذلك من المطالب الشرعية، فهو يحضر فإذا بدأ الخطيب فإنه سرعان ما يغلب عليه النوم، ولربما خرج من الخطبة وسئل عنها فلم يدر ما يجيب!

إذا أنت لم ينفك علمك لم تجد *** لعلمك مخلوقاً من الناس يقبله

وإن زانك العلم الذي قد حملته *** وجدت له من يجتنيه ويحمله (٦٢)

وبعضهم يقول:

يا واعظ الناس قد أصبحت متهماً *** إذا عبت منهم أموراً أنت تأتئها

فما أكثر التقصير!، ينبغي أن نعلم جيداً أن من صحة النية في طلب العلم أن يكون ذلك يراد به العمل والتقرب إلى الله - عز وجل -، وليكن ذلك منهجاً للإنسان، ولماذا يسعى الإنسان ويجد ويجتهد في تحصيل الوسيلة ويترك الغاية؟، الصحابة - رضي الله تعالى عنهم - لما سمعوا الله - عز وجل - يقول: **لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** [آل عمران: ٩٢]، جاء زيد بن حارثة - رضي الله عنه - فنظر في أفضل ما يملك فكانت له فرس يقال لها: "سَبَل" فقال: "هي في سبيل الله" (٦٣).

وجاء أبو طلحة فنظر في ماله فوجد بئرحاء هي أفضل أمواله، وكانت قريبة من المسجد فيها ماء طيب، يشرب منه النبي - صلى الله عليه وسلم -، فلما نزلت هذه الآية قال: "يا رسول الله، إن الله يقول: **لَنْ**

٥٩ - اقتضاء العلم للعمل للخطيب البغدادي (ص: ٣٤).

٦٠ - الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (٢/ ٢٥٨)، برقم (١٧٨٧).

٦١ - انظر: ربيع الأبرار ونصوص الأخيار (١/ ٤٢٥).

٦٢ - البيهتان لمحمود بن الحسن الوراق، انظر: جامع بيان العلم وفضله (١/ ٦٣٠)، برقم (١٠٨٨).

٦٣ - انظر: تفسير الطبري (٥/ ٥٧٧).

تَتَأَلَّوْا الْبِرَّ حَتَّى تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وإن أحب أموالي إليّ بئرحاء، وإنها صدقة الله، أرجو برها وذخرها عند الله تعالى، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله^(٦٤).

من منا يومَ مر على هذه الآية نظر في شيء من ماله -ليس من أحب الأموال إليه- وأخرجه منه؟ كم مرة قرأنا الآية؟ وكم مرة حركت في نفوسنا ساكننا؟

وفي الصحيحين أن عمر -رضي الله تعالى عنه- قال: " يا رسول الله، إنني أصبت أرضاً بخبير، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه، فما تأمرني به؟ قال: **((إن شئت حبست أصلها، وتصدقت بها))**^(٦٥). وهكذا كانت له جارية من سبي جلولاء وكانت من أحب الأشياء إليه فقال: هي حرة لوجه الله^(٦٦)، لما قرأ هذه الآية.

وابن عمر -رضي الله تعالى عنهما- يقول: " حضرتني هذه الآية: **لَنْ تَتَأَلَّوْا** فذكرت ما أعطاني الله فلم أجد شيئاً أحب إليّ من جارية لي رومية فقلت: هي حرة لوجه الله^(٦٧)، نحن الواحد إذا أرد أن يتصدق يقلب أحياناً المتاع أو اللباس، هذا جيد، هذا لا، هذا نحتاجه، وهذا نريده، وقد لا يُخرج إلا التالف، لو نظر الإنسان وحسب في مدة عام كم مرة تصدق بصدقة مما يحب؟

أقول: لا نذهب بعيداً، فتش وانظر، وافحص، وقلب أمورك، واجلس مع نفسك هذه الليلة وانظر في أحوالك وأعمالك وتقصيرك وما أنت عليه من الحال والعمل، ثم جدد حياتك، لا نذهب بعيداً، النبي -صلى الله عليه وسلم- كما في حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- يقول: **((والله إنني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة))**^(٦٨)، رواه البخاري.

من منا في يوم واحد من حياته -وليس كل يوم- استغفر سبعين مرة؟، النبي -صلى الله عليه وسلم- يستغفر في اليوم أكثر من سبعين مرة، وفي حديث الأغر المزني -رضي الله عنه-، عن النبي -صلى الله عليه وسلم-: **((يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه، فإنني أتوب في اليوم مائة مرة))**^(٦٩)، رواه مسلم، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه.

من منا في يوم في حياته تاب في اليوم مائة مرة؟ في يوم واحد مائة مرة؟ نسمع هذه الأحاديث دائماً لكن أين الامتثال؟ وأين التطبيق؟ وأين التغيير؟ وأين الاستجابة لله -عز وجل-؟

٦٤ - أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب الزكاة على الأقارب، برقم (١٤٦١)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين والزوج والأولاد، والوالدين ولو كانوا مشركين، برقم (٩٩٨).

٦٥ - أخرجه البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الوقف، برقم (٢٧٣٧)، ومسلم، كتاب الوصية، باب الوقف، برقم (١٦٣٢).

٦٦ - انظر: تفسير البغوي (٢ / ٦٧)، وتفسير ابن كثير (٢ / ٧٤)، وعزاه للبخاري، والدر المنثور في التفسير بالمأثور (٢ / ٢٦٠).

٦٧ - أخرجه الحاكم في المستدرک، برقم (٦٣٧٥).

٦٨ - أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم واللييلة، برقم (٦٣٠٧).

٦٩ - أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، برقم (٢٧٠٢).

﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأفعال: ٢٤-٢٥]، المسألة ليست سهلة، **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾** فلا يملك قلبه، يطمس عليه فلا يستجيب أبداً حتى يموت، ولا تسأل عما ينزل بالناس من الفتن العامة والخاصة بسبب تركهم ما أمرهم الله - عز وجل - به: **﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾**، ونحن الآن نتقلب من فتنة إلى فتنة.

إنكار المنكر: حديث أبي سعيد عن النبي - صلى الله عليه وسلم -: **﴿من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه﴾**^(٧٠)، رواه مسلم، تقف عند الإشارة وتسمع صوت المعازف هل كلمته؟ هل أنكرت عليه؟ تدخل في السوق وترى هذه متبرجة، وهذا يلاحق النساء، وذلك تارك للصلاة، هل كلمتهم؟ هل وقفت؟ هل نصحت؟ هل أمرت بالمعروف؟ هل نهيت عن المنكر؟ أعراض المسلمين الغيبة أليست من الكبائر؟ حقوق المسلمين وما يجب علينا فيها، حديث أبي بكر مرفوعاً: **﴿إن دماءكم وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا﴾**^(٧١)، الدماء والأموال والأعراض من يستطيع أن يقول: أنا لا أغتاب الناس؟، طلاب العلم هل منهم أحد يستطيع أن يقول: أنا لا أغتاب؟، أليست الغيبة فاكهة المجالس؟ ولو أن أحداً منا قال لأصحابه في يوم من الأيام: لا تغتابوا الناس، سبّحوا، أنا متأكد أن أكثرهم سيصمونه بشيء من الغفلة والبساطة والسذاجة، طلاب العلم ليس العوام، العوام يستحون ويبتسم ثم يقول: جزاك الله خيراً، لكن من طلاب العلم من لا يسكت عن غيبة في مجلس -بأي سبب من الأسباب- تُقرى فيه اللحوم والأعراض **﴿أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾** [الحجرات: ١٢]، فلان كذا، وفلان فيه كذا، -عالم أو متعلم- لو جاءه إنسان في كل مجلس وقال: اتق الله يا أخي لا تتكلم في الناس، سيستنقل الناس حضوره المجالس، وسترى أثر ذلك في وجوههم في نفس المجلس إلا من رحم الله -عز وجل-، وجرب هذا، وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- مرفوعاً: **﴿لا تحاسدوا، ولا تتاجسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم لا يظلمه، ولا يحقره، ولا يخذله، التقوى هاهنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه﴾**^(٧٢).

أليس أكثر التهاجر والتقاطع هو بين المنتسبين إلى علم أو دين أو دعوة؟، أليس هذا هو الواقع؟ أين العلم؟ أين العمل بهذا الحديث؟ أين أعراض المسلمين؟ أين أعراض الدعاة إلى الله -عز وجل-؟ أين

٧٠ - أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب، برقم (٤٩).

٧١ - أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، برقم (١٧٣٩)، ومسلم، كتاب القسامة والمحاريب والقصاص والديات، باب تغليظ تحريم الدماء والأعراض والأموال، برقم (١٦٧٩).

٧٢ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره، ودمه، وعرضه، وماله، برقم (٢٥٦٤).

أعراض العلماء؟ أين أعراض الصالحين؟ تُمزق.

الجيران: من منا لم يسمع بحديث: ((ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه))^(٧٣)، حديث أبي شريح الخزاعي -رضي الله عنه- مرفوعاً إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-: ((من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره))^(٧٤)، من منا يتعاهد الجيران، ويقصدهم بالزيارة، والتفقد؟، يسافرون ويرجعون ويمرضون ويصحون ونحن آخر من يعلم، مشغول، مشغول بماذا؟ هذا هو الشغل، أين العمل بالعلم؟.

العقوق والصلة: **{بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا}** [البقرة: ٨٣] الوالد أو الوالدة تقول له: لا تخرج الليلة اجلس عندنا، يقول: أنا مواعد الشباب، لا تسافر بالليل سافر بالنهار أحسن، أخاف عليك، أنا ما أعرف أمشي بالنهار أنا ما أعرف أمشي إلا بالليل مع السلامة، هذا عقوق، عاق وإن كان طالب علم بزعمه، أين العمل؟ بل أكثر من هذا هو يعلم أن والده أو أن والدته لا تحب منه أن يصحب فلاناً، أو أن يذهب للمكان الفلاني، أو أن يسافر إلى المكان الفلاني هو يعرف، مقتضى البر أن يجلس سمعاً وطاعة، أنا لا أذهب لأنكم لا تريدونني أن أذهب، أحد العلماء عندكم هنا -نسأل الله أن يبارك في عمره- أظنه الآن بلغ قريباً من الثمانين حاولنا كثيراً أن يأتي للشرقية كانت له والدة توفيت -رحمها الله- كان يقول: والدتي لا تسمح لي أن أسافر، يذهب ليلقي دورة أو محاضرة ما ذهب ليتمشى ويزور أصحابه أو يذهب معهم في نزهة، لا، يذهب لمحاضرة وعلم، عالم كبير في السن.

صلة الأرحام، الأقارب قد يكونون في البلد عندك وتمر السنة لربما لا تراهم، حديث عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((الرحم معلقة بالعرش، تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعته الله))^(٧٥)، رواه مسلم.

هات لي طالب علم حفيماً بوالديه، حفيماً بأرحامه، حفيماً بجيرانه، إذا تعلم مسألة طبقها وعمل بها، فهذا هو العلم الذي ينفع ويرفع.

كلنا سمع الحديث: ((من صلى أربعين يوماً في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كتب له براءتان، براءة من النار، وبراءة من النفاق))^(٧٦)، أكثر من هذا!، من منا طبقه؟ نحن لا نحتاج أن نسأل الآن ليجيب كل واحد، هذه الأعمال بيننا وبين الله -عز وجل-، لكن نحن في غاية التقصير.

٧٣ - أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، برقم (٦٠١٥)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، برقم (٢٦٢٥).

٧٤ - أخرجه مسلم بهذا اللفظ، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، ولزوم الصمت إلا عن الخير وكون ذلك كله من الإيمان، برقم (٤٨).

٧٥ - أخرجه مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، برقم (٢٥٥٥).

٧٦ - أخرجه الترمذي، أبواب الصلاة عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في فضل التكبيرة الأولى، برقم (٢٤١)، والطبراني في العجم الكبير، برقم (٩٢٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٦٥٢)، وحسنه في صحيح الجامع، برقم (٦٣٦٥).

حديث آخر: ((خمس من عملهن في يوم كتبه الله من أهل الجنة: من عاد مريضاً، وشهد جنازة، وصام يوماً، وراح يوم الجمعة، وأعتق رقبة))^(٧٧)، من جمعها؟
(من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه غفر له وإن كان فر من الزحف))^(٧٨)،
سمعنا من قاله بهذا النص.

الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة الجمعة، وفي يوم الجمعة^(٧٩)، دعك من بقية الأيام، كم مرة نصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم- في اليوم والليلة؟
فالنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليّ صلاة))^(٨٠)، احسب يوم الجمعة كم مرة تصلي على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟!
النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: ((من قرأ: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ} [الملك: ١]، كل ليلة منعه الله - عز وجل - بها عذاب القبر))^(٨١)، من منا يواظب على قراءتها قبل النوم؟
(من قرأ بمائة آية في ليلة كتب له قنوت ليلة))^(٨٢).

الأخلاق: أحياناً يكون طالب العلم من أسوأ الناس خلقاً، نسمع في أسئلة بعض الأخوات الزوجات أشياء تشيب لها المفارق، حينها يتعجب الإنسان يوجد بشر يعيشون بهذه الطريقة، والتعامل السيئ مع أقرب الناس إليهم!، تُفاجأ أنه خطيب مسجد، لا نعرف من هو لكن نقول: هذا خطيب مسجد، هذا شيخ، هذا خريج شريعة، إجرام ابتزاز ظلم قهر ضرب شتم تقبيح ظلم أشياء هائلة، والنبي -صلى الله عليه وسلم-

٧٧ - أخرجه ابن حبان في صحيحه، برقم (٢٧٧١)، وقال الألباني: "سنده صحيح، رجاله كلهم ثقات معروفون"، في السلسلة الصحيحة، برقم (١٠٢٣).

٧٨ - أخرجه أبو داود، أبواب فضائل القرآن، باب في الاستغفار، برقم (١٥١٧)، وقال الأرنؤوط في تحقيقه: "صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لجهالة بلال بن يسار بن زيد وأبيه"، والترمذي، أبواب الدعوات عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب في دعاء الضيف، برقم (٣٥٧٧)، والطبراني في المعجم الكبير، برقم (٤٦٧٠)، وابن أبي شيبة في المصنف، برقم (٢٩٤٤٩).

٧٩ - أخرجه النسائي، كتاب الجمعة، إكثار الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- يوم الجمعة، برقم (١٣٧٤)، وابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ذكر وفاته ودفنه -صلى الله عليه وسلم-، برقم (١٦٣٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٠٨).

٨٠ - أخرجه الترمذي، أبواب الوتر، باب ما جاء في فضل الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٤٨٤)، وابن حبان في صحيحه، برقم (٩١١)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، برقم (١٨٢١).

٨١ - أخرجه النسائي في السنن الكبرى، برقم (١٠٤٧٩).

٨٢ - أخرجه النسائي في الكبرى، برقم (١٠٤٨٥)، وأحمد في المسند، برقم (١٦٩٥٨)، وقال محققوه: "حديث حسن بشواهد، وهذا إسناد ضعيف لانقطاعه، سليمان بن موسى -وهو الأشدق- لم يدرك كثير بن مرة، فيما قاله أبو مسهر، ونقله عنه المزني في "تهذيب الكمال"، وبقية رجاله ثقات، الهيثم بن حميد: هو الغساني"، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٤٤)، وصححه في صحيح الجامع، برقم (٦٤٦٨).

يقول: **((أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن))**^(٨٣)، الخلق الحسن ليس ابتسامات نوزعها لأصدقائنا، الخلق الحسن يظهر أول ما يظهر في داخل البيت، كيف تتعامل مع أختك وأخيك وأمك وأبيك؟ كيف تتعامل مع هؤلاء الذين يعرفون أحوالك ويطلعون على ما لا يطلع عليه الآخرون والكلفة قد سقطت؟ إذا خرج تزين باللباس وتجميل أمام أصحابه بالكلام والتلطف، وفي البيت شيء هائل من الفضاظة والأخلاق، فلان لطيف المعشر، لطيف المعشر أمامك.

بل إن بعضهم يلقب في بيته بألقاب قد وضعت له وعرف بها لشراسته، ولا حاجة لأن أذكر هذه الألقاب، شرس هو حافظ القرآن، وطالب علم في غاية الشراسة، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا: بلى، قال: إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة))**^(٨٤)، من منا لو علم بأن هناك خصومة بين اثنين من الجيران أو من المعارف أو من الأقارب أو من الأصحاب ذهب ليصلح **﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾** [النساء: ١١٤]، من منا يتحرى هذه الأمور ويكون سبباً لجمع القلوب وائتلاف الكلمة والإصلاح بين الناس؟.

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((من أفضل العمل إدخال السرور على المؤمن))**^(٨٥)، تقضي عنه ديناً، تقضي له حاجة، تنفس له كربة، المفروض من عرف هذا وسمعه أن يشتغل به، إدخال السرور، الكلمة الطيبة، الخبر السار، احتسب ذلك عند الله -عز وجل- تنفيس الكرب، قضاء الديون. وهكذا عيادة المريض أنا رأيت من العامة من يذهب إلى المستشفى كل يوم لأناس لا يعرفهم، يمر على المستشفى، ورأيت من يذهب في يومين في الأسبوع، ومن يذهب في يوم ويوم، والنبي -صلى الله عليه وسلم- يقول: **((إذا عاد المسلم أخاه المسلم مشى في خِرافة الجنة حتى يجلس، فإذا جلس غمرته الرحمة، فإن كان غدوة صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن كان مساءً صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح))**^(٨٦)، رواه أبو داود، وأحمد، وصححه الشيخ ناصر الدين الألباني -رحمه الله. فهذه نماذج وأمثلة وكل إنسان ينبغي أن يرجع إلى نفسه فيفتش، وينظر في حاله هل هو يعمل؟ كلُّ

٨٣ - أخرجه أحمد في المسند، برقم (٢٧٥٥٥)، وقال محققوه: "حديث صحيح"، وابن حبان في صحيحه، برقم (٤٨١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٣٤)، وبرقم (٥٧٢١).

٨٤ - أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، برقم (٤٩١٩)، والترمذي، في أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، برقم (٢٥٠٩)، وأحمد في المسند، برقم (٢٧٥٠٨)، وقال محققوه: "إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٥٩٥).

٨٥ - أخرجه البيهقي مرسلًا في شعب الإيمان، برقم (٧٢٧٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٨٩٧).

٨٦ - أخرجه أبو داود، كتاب الجنائز، باب في فضل العيادة على وضوء، برقم (٣٠٩٨)، والترمذي، أبواب الجنائز عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، باب ما جاء في عيادة المريض، برقم (٩٦٩)، وابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ما جاء في ثواب من عاد مريضاً، برقم (١٤٤٢)، وأحمد في المسند، برقم (٦١١)، وقال محققوه: "صحيح موقوفاً، رجاله ثقات رجال الشيخين، لكن اختلف في وقفه ورفع، والوقف أصح"، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٦٨٢).

بحسبه، والعلم ليس معناه أن الإنسان يتخصص بدراسة العلوم الشرعية، لا، ما تسمعه في الإذاعة، ما تسمعه في محاضرة، ما تسمعه من المنبر، كل هذا من العلم، ما تقرأه في كتاب، فمن استكثر من العلم ينبغي أن يكون أكثر الناس عملاً، يفترض أننا إذا دخلنا كلية مثل كلية الشريعة أقول: يفترض لو دخلنا في مساكن هؤلاء الطلاب وعاشرناهم أن نجد أنهم أكثر الناس عملاً؛ لأنهم أكثر الناس عملاً، هذا هو الواقع، أكثر الناس عملاً يجب أن يكونوا هم أكثر الناس عملاً فأين العمل؟ أين التطبيق؟ أين الامتثال؟ هذا الإعراض سبب بلايا ورزايا أصابتنا من قسوة القلوب، والغفلة الغالبة، كما سبب أيضاً سمعة سيئة عند الكثيرين من العامة ففتنوا بذلك، حينما يرى أمثال هؤلاء ويرى ما هم عليه من قلة العمل وكثرة الانكباب على اللهو والدنيا وجمعها وحطامها، **{يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ}** [الشعراء: ٢٢٦]، إذا رأى الإنسان من هذه النماذج فتن، فإذا رأى أولئك الذين يعملون بعلمهم فإنهم لا شك سيكونون نماذج عظيمة لهؤلاء الناس تجعلهم يستجيبون للدعوة الإسلامية بسبب سلوكنا وأعمالنا وأحوالنا، وليست القضية والعبرة بكثرة القول والكلام، وإنما العبرة بالحال، والصدق مع الله - عز وجل - وما عليه الإنسان من الهدى والاستقامة والإصلاح.

هذه ذكرى، والذكرى تنفع المؤمنين، وأستغفر الله - عز وجل - وأتوب إليه، فالتقصير كثير، وأعوذ بالله أن نكون ممن يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم. ونسأل الله أن يعفو عنا وعنكم، ويغفر لنا ولكم. اللهم ارحم موتانا، واشفِ مرضانا، وعافِ مبتلانا، واجعل آخرتنا خيراً من دنيانا. وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه.